ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324

فتح وهران الأول على ضوء كتاب التحفة المرضية لابن ميمون "دراسة تحليلية نقدية"

Oran the First Opening in the Light of a Book the Pathological Masterpiece of Ibn maimon (A Critical Analytical Study)

✍اسم ولقب المؤلف المرسل: لبنى مهدي- LOUBNA Mahdi صص235- 249
الدرجة والعنوان المهني: طالبة دكتوراه- وباحثة في مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر- جامعة محمد خيضر- بسكرة- الجزائر/البريد الإلكتروني: loubna.mahdi@univ-biskra.dz
✍ اسم ولقب المؤلف الثاني: د. محمد الطاهر بنادي-Mohamed Tahar Benadi
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر- جامعة محمد خيضر- بسكرة- الجزائر/البريد الإلكتروني: mt.benadi@univ-biskra.dz

تاريخ استقبال المقال: 2020/06/03 تاريخ المراجعة: 2020/07/05 تاريخ القبول: 2020/08/04

الملخص: يعد كتاب "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية" لمحمد بن ميمون من بين المصادر التاريخية والأدبية الهامة، حيث احتوى على ست عشرة مقامة، خصصت أغلبها للحديث عن شخصية الحاكم العثماني محمد بكداش، ناقلا لنا نظرته عن هذه الشخصية، مبرزا شجاعته في استرداد وهران بعد التصدي للاحتلال الاسباني، راصدا كل المعارك التي دارت بين الجزائر وإسبانيا، والتي كان الغرض منها فتح وهران الأول سنة 1708م، بعد أن بقيت تحت قبضة الإسبان لمدة قاربت الثلاثة قرون حتى تم فتحها، وذلك بفضل جهود الباي محمد بكداش وصهره أوزن حسن والباي أبي الشلاغم.

ورغم قيمة هذه الدراسة التاريخية، التي أشاد من خلالها ابن ميمون بشخصية محمد بكداش، إلا أنها أوقعته في دائرة الانحياز والذاتية.

الكلمات المفتاحية: فتح وهران الأول؛ الجزائر؛ محمد بن ميمون؛ التحفة المرضية؛ القرن 18م؛ المصادر المحلية.

ABSTRACT: The book "tuhfa el-mardhia fi dawla el-bakdashia fi bilad Al-djazair el-mahmia" by Muhammad Bin Maimon is an important historical and literary source, as it contains sixteen shrines, most of which were devoted to talking about the personality of the Ottoman ruler Muhammad Bakdash, conveying to us his view of this character and highlighting his courage in countering the Spanish occupation of Oran Recovering them, describing all the

battles that took place between Algeria and the Spanish for the conquest of Oran, which remained under the grip of the Spaniards for nearly three centuries until they were opened in 1708, thanks to the efforts of Al-bey Muhammad Bekdash and his son-in-law Uzen Hassan and Abi Al-Shalaghem.

Despite the value of the historical study and what Maimon praised, but his admiration for a Bakdash personality made him in the circle of alignment.
Keywords: Oran the First Opening; Algeria; Muhammad bin Maimoun; Pathological Masterpiece; 18th century; Local sources.

المقدمة: تباينت روئ ووجهات نظر الكتابات التاريخية الجزائرية، حول السلطة العثمانية في الجزائر إبان العهد العثماني (1518-1830م)، بين مؤيد ومنصف لها وبين ناقد وناقم عليها، والتي بقيت مثار جدل بين مختلف الباحثين إلى يومنا هذا.

كان اهتمام العديد من الكتابات التاريخية منصبا حول التأريخ لأحداث تاريخية هامة، مست الجزائر أثناء هذه الفترة في مختلف الجوانب، ومن بين هذه الكتابات كتاب "**التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية** " لمحمد بن ميمون، الذي نقل لنا نظرته حول شخصية الداي محمد بكداش، من خلال تأريخه لحدث هام هو الفتح الأول لوهران عام 1708م.

وعليه فالإشكالية المطروحة التي سنحاول الإجابة عنها هي: كيف كانت نظرة محمد بن ميمون لأحداث فتح وهران الأول من خلال كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية؟ وهل كان من المؤيدين أم من الناقمين على الداي محمد بكداش؟ وإلى أي مدى كان طرحه في كتابه طرحا موضوعيا أم أنه اتبع الذاتية كمنهج في عرض القضايا التاريخية؟

تهدف هذه الدراسة الى معرفة الظروف التي تم فيها فتح وهران الأول، في عهد الداي محمد بكداش من خلال كتاب التحفة لابن ميمون، ومدى موضوعيته في تناول الأحداث، إضافة إلى محاولة التركيز على فترة تاريخية هامة عرفت اختلافا بين جل الكتابات التاريخية، والتي انقسمت بين مؤيد ومعارض للسلطة العثمانية في الجزائر.

أما فيما يتعلق بمناهج البحث، فاتبعنا المنهج التاريخي الوصفي، من خلال وصف مختلف المعارك والأحداث التي تمت أثناء فتح وهران الأول على عهد الداي محمد بكداش، بالإضافة الى المنهج التحليلي في دراسة وتحليل مضمون كتاب التحفة المرضية لابن ميمون.

1- التعريف بمؤلف "التحفة المرضية": هو أبو عبد الله محمد بن ميمون الزواوي النجار الجزائري الدار[1]، ولد بمدينة الجزائر من عائلة اشتهرت بالعلم؛ فقد كان جده أبو العباس أحمد بن عبدالله الزواوي عالما بالفقه واللغة، أخذ العلوم الفقهية واللغوية على يد العديد

من علماء مدينة الجزائر، منهم أبو عبد الله محمد الشغيري الجزائري، عرف بثقافته الأدبية وميله للتصوف، وولعه بنظم الشعر، تتلمذ على يديه ابن حمادوش، وقرأ معه العديد من الكتب مثل كتاب القلصادي في الحساب والفرائض[2]، ومسائل ابن حجة في الأدب وتاريخ ابن الكردبوس[3]، وقد ذكره عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته المسماة لسان المقال بقوله: "القاضي الأديب"، كانت له ثقافة واسعة ووصفه محمد بن عبد الرحمان الجامعي بـ"الأديب الأريب"[4].

تولى محمد بن ميمون خطة قضاء الجزائر لفترة زمنية في عهد الداي محمد بكداش (1707-1710م)، كما شغل خطة المواريث زمن الداي إبراهيم باشا (1745-1748م)، عرف بنظمه للمقامات، ومشاركته في مجالس العلم بين بعض علماء الجزائر آنذاك كابن علي وابن عمار ومحمد بن سيدي محمد بن نيقرو وعبد الرزاق بن حمادوش، اعتزل الوظيف وتفرغ للتأليف ونظم الشعر[5].

إن من بين المصادر التي أشارت إلى ابن ميمون رحلة ابن حمادوش، الذي ذكر بأنه كان حيا سنة 1159هـ، وهي الرواية التي اعتمدها المؤرخ أبو القاسم سعدالله، وفي ذلك يقول: «وأما ابن ميمون فنعرف من رحلة ابن حمادوش أنه كان حيا سنة 1159هـ، وبذلك يظهر أنه ألف التحفة وهو في سن الشباب». ومما لا يدع مجالا للشك أنه كان حيا خلال القرن 12هـ، فقد عاصر الجامعي الذي توفي سنة 1144هـ، ولكن أن يكون حيا سنة 1159هـ، أو يكون قد ألف كتاب التحفة في سن الشباب؛ فذاك أمر يحتاج إلى إثبات، فحين نطلع على المقامة السابعة في مدحه للداي بكداش، التي جاء فيها ما نصه: «قد أخذ بمجامع القلوب كلمه، وأخذ في طريق الإبداع قلمه، وكيف لا وهو علم البراعة وقيوم الصناعة، لا أعلم أني لقيت من سن الطفولة إلى ما فوق زمان الكهولة أبرع منه في هذه الطريقة، ولا أقوى شاهدا فيها منه على الحقيقة»، وبالتالي فقوله: «من سن الطفولة إلى ما فوق زمان الكهولة» يؤكد لنا بأنه قد كتب التحفة المرضية وهو في سن الشيخوخة، التي عبر عنها بما فوق زمان الكهولة، ولم يكتبها في سن الشباب كما ذهب إلى ذلك أبو القاسم سعد الله باعتماده على رواية ابن حمادوش[6].

2- التعريف بالكتاب: تناول ابن ميمون في كتاب "التحفة المرضية" سيرة الداي محمد بكداش، أعماله وآراؤه أثناء فترة حكمه، حيث خصص جزءا كبيرا من الكتاب للحديث عن الفتح الأول لمدينة وهران على يد هذا الداي[7].

لقد جمع في كتابه ست عشرة مقامة، وجعل كل مقامة عبارة عن فصل من سيرة الباشا وأعماله؛ فمثلا المقامة الأولى تناولت نبذة عن أخلاقه[8]، والثانية في تعيينه لمنصب حامل الراية، والثالثة تطرق فيها لتوليته منصب مقتصد عسكري، والرابعة كيفية إسناده منصب كاتب عام للدولة...الخ[9]، وقد ذكره محمد بن عبد الرحمان الجامعي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي بالقول: «فإنه أي محمد بن ميمون، ألف في سيرة هذا السيد محمد بكداش نصره الله، كتابا سماه بالمقامات، وهي في الحقيقة قلائد عقيان ولولا مشاهدة رقم سطوره في لباب طروسه، لقلت وسجعات حمائم البستان»[10].

إن كتاب التحفة المرضية عبارة عن سجل مقامات، جمعت العديد من القصائد، امتازت بأنها لم تكن من المدح المجرد الذي تعوده الشعراء عند أبواب الملوك، بل احتوت على الشجاعة الأدبية والصراحة، والنصح للممدوح، ولفت نظره إلى ما تشكو منه البلاد[11].

بلغ عدد هذه الأبيات الشعرية 795بيتا، ما جعلها في مقامات تصل إلى ست عشرة مقامة، كل واحدة منها تحمل عنوانا حسب موضوعها[12].

3- فتح وهران الأول عام 1708م في عهد الداي محمد بكداش: يحتوي كتاب التحفة المرضية على سجلات أدبية هامة، في شكل مقامات للعلامة الأديب الشيخ محمد بن ميمون الجزائري[13]، وقد خصص أغلبها للحديث عن الحاكم العثماني محمد بكداش، بدءا من المقامة الأولى إلى المقامة الثامنة[14]، حيث يشير في الأولى إلى اسم والده والتنبؤ لولده بالرئاسة على الجزائر، أما المقامات الثانية والثالثة والرابعة والسادسة؛ فيذكر فيها تاريخ إسناد المناصب إلى هذا الداي وهي: منصب حامل الراية، منصب مقتصد عسكري، منصب كاتب عام للدولة (دفتر دار)، وفي الأخير منصب داي الجزائر، كما يشير إلى وقوف صهره أوزن حسن إلى جانبه، في حين ذكر في المقامة الخامسة تاريخ نفي محمد بكداش من الجزائر إلى طرابلس الغرب، وكيف عاد إليها[15].

أورد المؤلف في المقامة السابعة التعريف بالداي محمد بكداش، من حيث ذكر اسمه، نسبه، صفاته، ذكر ولده، صهره، وزرائه وكتابه، ترجمانه وقضاته، واحتوت المقامة الثامنة على ذكر بعض العلماء والشعراء، الذين هنؤوه بمناسبة توليته منصب داي الجزائر، وضمت هذه المقامة ثلاثمائة واثنين وسبعين بيتا من الشعر، كما خصص المقامة التاسعة للحديث عن تاريخ استيلاء الإسبان على مدينة وهران، وما فعلوه بأهلها من قمع وتنكيل، وذلك بمساعدة بعض القبائل[16].

إن ابن ميمون تطرق من المقامة العاشرة إلى غاية المقامة الثانية عشر، إلى كيفية استعادة المسلمين لبرج العيون، وبرج جبل المائدة، وبرج بن زهو، أما في المقامة الثالثة عشر فيشير إلى فتح مدينة وهران والمعارك التي سبقت هذا الفتح، مع ذكر قصائد الأدباء والعلماء الذين هنؤوه بهذا الإنجاز، كما تناول في المقامتين الرابعة عشر والخامسة عشر واقعة فتح البرج الأحمر والمرسى، خاتما مقامته السادسة عشر بعودة الخليفة حسن أوزن إلى الجزائر، مع ذكر انتصاره على الإسبان، وكيفية فتح مدينة وهران، حيث أجاد المؤلف في وصف هذه العودة، وسرور الناس بهذا الفتح[17].

ابتدأ محمد بن ميمون مقامته الأولى بالتعريف بشخصية الحاكم العثماني بالجزائر محمد بن علي بن محمد بكداش الشريف الحسني النكداني، والده يدعى نور الدين أبو الحسن بن محمد، القرشي النسب، العربي الإقليم، أقبل هذا الحاكم إلى الجزائر سنة ست وثمانين بعد الألف، وقد أجاد ابن ميمون في مدحه بالقول: «ألقى على شمس النهار بهجة وضياء، سارت بمجادته الأخبار، وحق فيه وفي بداهته الاعتبار...»[18]، اتصف بحسن السيرة والعفاف وإحسانه للفقراء والمساكين، كما وصفه بقوله: «وما اطلع عليه أحد بفساد منذ أقبل، إلا بحسن السيرة والعفاف فيما استدبر والأصفياء والقلب منه متشبث بالأولياء، وممازحة الفقراء والمساكين والأصفياء»[19].

كما يشير ابن ميمون إلى تولية محمد بكداش لمنصب حامل الراية سنة سبع ومائة وألف، حيث يصف ذلك بقوله: «فكانت توليته لذلك المنصب نعمة عميمة، وكمال راحة ومنة جسيمة، وتمام صحة على كل ناحية من سفك دمها تميمة...»، وقد أنشد أيضا في ذلك يقول:

هي السيادة حلت منزل القمر وأنت منها سواد القلب والبصر
وهي الجلالة لا تري لها صفة لكنها عبرة جاءت من العبر
أما المعالي فقد حطت رواحلها لديك والخبر قد يغني عن الخبر.[20]

كما تطرق إلى تاريخ توليته لمنصب دفتر دار، والذي كان سنة سبعة عشرة ومائة وألف؛ فقد سار في الناس سيرة أخذت بمجامع قلوبهم، وتوجهوا إليه لبشاشته وحسن خلقه، حيث كاتبه الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن الشيخ سيدي قاسم الملقب بابن ساسي البوني بأرجوزة نختار منها هذه الأبيات:

اعمد إلى الظريف بكداش الشريف
تجد لديه ما ذكر في كل محفل شكر

يطرد عنك الفقـر وباجتهاد تقـــــرى
به تصير الزاويـــة عامـرة لا خاويـــــة
هذا أمير هـاشمـي لم يـرض بالمظالـــم
طوبى لمن قد قاربه يا ويح شخص حاربه.[21]

وفي عام ثمانية عشرة ومائة وألف عين دايا على الجزائر[22]، وقد بقيت الناس تلقاه بالود وتقدمه في الأعيان؛ فلما أبصروه خاصة الأمير حسين خوجة الشريف على هذه الحالة حسـدوه، وصـاروا ينسـبون إليـه الفحشـاء حتى نبـذوه، بعـدها تـم نفيـه وإخراجـه مـن الجزائر[23].

يؤرخ ابن ميمون أيضا في كتابه "التحفة المرضية" لحدث هام، وهو الفتح الأول لمدينة وهـران عـام 1708م في عهـد الـداي محمـد بكـداش، حيـث يشـير إلى أن الإسـبان مكثـوا في المدينـة مائتين وخمسـة أعـوام، قـاموا فيهـا ببنـاء الحصـون وتشـييدها كما غـزوا بلاد الإسـلام وأسـروا علمائها، والذين تحالف معهم بنو عامر، وهم أول من دخل في بيعتهم من المسلمين، علـيهم مـا يسـتحقون مـن الخـزي إلى يـوم الـدين[24]؛ فهـم مـن آزروا الإسـبان ووقفـوا إلى جانبهم[25]، وقد عرفوا بالغدر والخديعة[26]، لذلك طلب منهم علماء وأعيان بني عامر وزناتة الإغاثـة وكاتبوهم نظمـا ونثرا[27]، ولكثرة جنـد بني عـامر وشـدة بأسـهم ودخـولهم تحـت ذمـة الكافر، وحصول الإهانة لهم، خاطبهم العلامة العالم أبو العباس سيدي أحمد ابن القاضي ابن سيدي عبد الله بن أبي محلي السجلماسي الساوري، شيخ العلامة عثمان سيدي سعيد قـدورة الجزائـري، على سـبيل المعـايرة والإغـراء في قصـيدته الرائيـة ظنـا منـه الإقـلاع عـن مناصرتهم للإسبان، اخترنا منها بعض الأبيات:

فمن مبلغ عني قبائل عامـــــر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
أناشدكم بالله ما عذر كلـــكم لدى الله في وهران أم الخنـــازر
أذلكم الجبار كيف رضيتـــــم بسبي العذارى من بنات الأكـابر
فصرتم من جور البـغاة كأنكم يهود الجزا تعطونها في الأصـاغـر
فلا همة تعلو بكم عن دنيـــــة ولا غيـرة تـدعوكم للمـــــــآثر
عليكم أكاف الذل أين فحولكم أبصروا في السبي غير الحـــرائر

غير أنهم لم يلتفتوا إلى هذا الخطاب، بل ازدادوا نفورا إلى الكوافر الإسبان[28]، كما كانـت دعـوة العلمـاء الجزائـريين للجهـاد مـن العوامـل التي شـجعت العثمـانيين على تجديـد

الحملات العسكرية لتحرير وهران، لذا فقد اعتبر العالم ابن أبي محلي تولية الأتراك للجزائر علامة على فتح وهران إذ قال:

ألستم أخذتم دار ملككم التي... من أشرط فتحها وذا في العلائم[29]

وهناك من العلماء من كان يحث على الجهاد عامة وتحرير وهران خاصة، ومنهم من تنبأ بالفتح قبل وقوعه تشجيعا للحكام[30]؛ فقد حرضوا على القتال بقصائد، ومنهم الناظم الناثر السيد ابن أقوجيل، ومما صدر عنه في التحريض:

والتفت نحو الجهاد بقوة والكفر أقطع أمله بذكور

يذكر صاحب التحفة أن الداي محمد بكداش أرسل جيشا بقيادة صهره أوزن حسن لفتح مدينة وهران، التي بقيت تحت سلطة الإسبان مدة خمس ومائتي سنة، معززا الجيش بالعدة والعتاد[31]، مقدما خطابا يدعوهم فيه إلى مساندة حسن أوزن: «أقدم لكم القائد السيد الملازم الذي يمثلني في كل أمر؛ فقد أسندت له مهمة المحافظة على مصالحكم من أي سوء، وطلبت منه حمايتكم جميعا؛ فقبل رغم صعوبة المهمة، وأنا متيقن أنه سيعمل بكل تفان، لذا أطلب منكم مساعدته... لا أذكر لكم خصاله وقدراته وشجاعته، ستتأكدون بأنفسكم من خلال المعارك، ساعدوه في مهمته بطاعة أوامره وبالانقياد لواجباتكم... والذي لا يعمل على تنفيذ هذه الأوامر؛ فالعقوبة القاسية ستلحق به...»، وبعد سماع هذه الكلمات من قبل الحشود قامت بالهتاف، وانطلقت نحو مقاومة الاحتلال الإسباني[32].

يذكر الضابط الإسباني أرامبورو (Aramburu) أن الداي محمد بكداش أرسل أسطولا حربيا بقيادة صهره أوزن حسن لإحكام الحصار البحري على مدينة وهران، غير أن الباي مصطفى بوشلاغم أمره بتطويق القاعدة الإسبانية برا[33].

تم فتح المدينة عنوة على يدي صهره والباي مصطفى أبي الشلاغم[34]، هذا الأخير الذي كان بايا على مازونة وتلمسان، اتجه لوهران، وقام بحصار وقتال من بها بجيشه؛ فكان تدبير أمر الحرب يصدر عن أوزن حسن والباي مصطفى بن يوسف المسراتي، وقد تم الفتح صبيحة الجمعة السادس والعشرين شوال سنة 1119هـ/1708م؛ فكان أول ما فتح من أبراجها برج العيون[35]، الذي شيّد من طرف الإسبان حتى يوفروا منه المياه للمدينة[36]، أما برج المرسى فلم يفتح إلا بعد إخضاعها مع سائر حصونها[37]، بعدها انتقل الباي مصطفى إلى وهران، وجعلها مقرا لحكمه، وقفل أوزن عائدا إلى الجزائر[38]، منتصرا ومعه الأسرى حاملا الغنائم، وفي شأن ذلك يقول ابن ميمون: «الكفر قد ذل واستكان، ودخل عزه في خبر كان...، والجهات بشادي الفتح تتعطر، اجتمعت الخلائق من كل فجّ عميق

لميعاد لقائه»، وهذا إشارة إلى حسن أوزن، وبعد هذا الانتصار أرسل محمد بكداش هدية ثمينة إلى الباب العالي[39]، تمثلت في ثلاثة مفاتيح ذهبية طالبا منه قفطانا للباشا[40]، ليلبسه صهره أوزن حسن كشعار لترقيته إلى رتبة باشا لكن السلطان رفض هذا الطلب[41].

بقي الباي مصطفى بوشلاغم في مدينة وهران، يقيم في خرائبها ويعيد بناءها، وأخذ الناس يتوافدون على المدينة، ويبنون بها دورهم، ويُنشؤون حولها حدائقهم، حتى أصبحت بعد مدة قصيرة مدينة عامرة ومرسى زاخرا بالحركة والعمران، وتطهرت من الاحتلال الإسباني[42]، كما كان له دور كبير أيضا في تطوير الزراعة بها، وفي تجديد عمرانها وبناء مخزنها وحمامين ما يزالان قائمان إلى اليوم[43].

وأقام المساجد، وزيّن ساحتها العامة بالأقواس؛ فانتعشت الحرف والصنائع وازدهرت التجارة، وعادت العلاقة بين المدينة والريف إلى ما كانت عليه، وتحوّل ميناءها إلى أكبر قاعدة تجارية بعد الجزائر العاصمة، وعاد الأمن والاستقرار من جديد إلى المنطقة[44].

يصف ابن ميمون أوزن حسن بأنه قبل مصاهرته للداي محمد بكداش، كان سكيرا مدمنا على شرب الخمر، يقضي جلّ أوقاته في اللهو: «وكان- قبل- قام زمانا على المدامة معتكفا، ولثغور البطالة مرتشفا، لا يغدو إلا ثملا، ولا يروح إلا بنشوة مشتملا» [45]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى مدحه بوصفه أنه أبو الفتوح حسن أكرم الناس عطاء بساما، وفي حومة الحروب عبوسا، ومن عداته نقاما، ولما صاهر بكداش أكرم سريرته[46]، ذلك أن حسن أوزن تغيرت حياته بعد أن أصبح صهره[47].

كما نعت الداي مصطفى أهجي بالظلم والطغيان، والعتو والتجبر، والبغي والعدوان، وسوء المعاملة، ونهبه لأموال الرعية، وإهماله لشؤون الدولة[48]، وفي هذا الصدد يقول المؤلف: «ساد وطغى في البلاد، واستوى عنده العالم والجاهل...، وعامل الناس أسوأ معاملة، وأعطاهم المقابحة عوضا عن المجاملة، وأهمل حال الدولة وناطها، وفرط في مصالحها وما حاطها، وتجبّر وعتا وأتى بذلك ما أتى، واشتغل بنهب الأموال وإجراء المظالم في كل حال»، وهو بذلك أراد أن يرسخ في ذهن المتلقي شخصية محمد بكداش، بصورة ناصعة مناقضة تماما لشخصية مصطفى أهجي[49] هذا من جانب، ومن جانب آخر نجده يمدح الداي حسين خوجة الشريف؛ فيذكر أنه حليف الصواب، ملازم الطهارة، معجز ببيانه، موجز في كلامه[50].

لقد لاقى حدث فتح وهران الأول إشادة الكثير من العلماء، كالعالم أبو زيد عبد الرحمان الذي وصف الأفراح التي نتجت عن هذا الفتح بقوله: «ولما أقبلت رسل البشائر،

وتليت صحف فتحها على الأمير، وعم الخطاب بالفرح...، أمر الأمير نصر الله الداي محمد بكداش باشا، بصنع وليمة الفرح وعيده، وتسريح من كان في هم وعيده (أي جماعة المسجونين)، وتزيين سوق البلاد وتجديده، وتعطيل البيع والشراء، وقطع الجدال والمراء، ورفع الأحكام وتنويع اللباس والطعام؛ ففتحت الناس صناديق ذخائرها، وتأرجحت الأرجاء بنفحات الند والعود... »[51]، وقد استقبل الداي محمد بكداش فتح وهران بالفرح؛ فعمل على مكافأة الجيش للشجاعة التي اتصف بها في المعارك، وقام بإلغاء الضرائب والعفو عن المساجين[52].

وقد اخترنا بعضا من أبيات الحافظ أبو راس في قصيدته السينية منها:

لما أراد الله عود الإيمان بهـا أقام بالجزائر مـذهب الـــــدنس
محمد بكداش أضحى باشتها قد فاق الأكفاء في الدهاء والرغس
ففتحت عنوة في تسع عاشره من بعد سكنى ره والدين في وكـس.[53]

لقد أشاد الكثير من الشعراء والعلماء بهذا الفتح، وخلّدوه بقصائد ومقالات شتى، من خلال الاستماتة الجهادية التي بذلها العثمانيون في سبيل ذلك، وهذا ما ذكره الحلفاوي في أرجوزته الشهيرة، حيث يثني على محمد بكداش وصهره حسن أوزن، الذي كلف بهذه المهمة الصعبة التي انتظرها الجزائريون وتفاعلوا معها:

لما أراد الله بالـدين جـــــلا عن أرض وهران بني الكـفر جلا
أجاد من حاد عن الخـلافـــة فاستنهـض فتى لها خـلافـــة
فجهز جيشا حمى الدين فسـاد إذ طهـرت به بقاع من فـــساد
مؤمر صهره أوزن حســـــنا قـوما رضى فسار سيرا حســنا.[54]

لقد ألهم الفتح الأول لمدينة وهران الكثير من العلماء والمؤرخين، وكان سببا في بعث الحركة الفكرية والعلمية من جديد، والتي ظهرت أهم تجلياتها في الكتابات الشعرية والنثرية[55].

ومن بين الذين كاتبوا محمد بكداش أحمد بن قاسم البوني، حيث قام بتهنئته بأرجوزة تحتوي على ثمانية وثمانين بيتا، وذكر موالا وخصّصه له:

قلبي إليكم صبا والحب في جاشي والسر منى سرى في سر بكداشي
يا لائمي في هوى هذا الفتى الناشي أقصى ملام كان خيره فـاشي[56]

وكان أول من راسله بالقصائد يحيى بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم، وفي ذلك يقول:

بشراك يا بكداش قد نلت المنى عمرت أرض الكفر بالإيمان[57]

عُرف عن محمد بكداش أنه كان يتقرب إلى العديد من العلماء، ويمنحهم الهدايا والعطايا[58]، رغم أنه لم يحكم الجزائر لأكثر من ثلاث سنوات[59].

كما مدحه العالم الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الثغيري بقوله:

الحمد لله الذي قد فتحا وهران على أيدي الرجال الصلحا
ففتحت سنة تسعة عشر ومائة من بعد ألف تعتبر
في سادس العشرين من شوال صبيحة الجمعة خذ مقالي
عن يد من صير الجزائر جنة كل قاطن وزائر
محمد البكداش فخر الدولة وحسن صهره الصولة[60]

كما راسله شيخ الإسلام السيد مصطفى بن عبد الله البوني الخطيب مُهنئا إياه بالفتح:

يا سيدي محمد بكداش نجل الأمجد
لقد فتحت وهرانا بالعسكر المؤيد
بالنصر والرعب معا وكل سيف ماجد
وحسن سلطانهم بينهم كالأسد[61]

وقد شبه أبو زيد بن عبد الرحمان الجامعي هذا الفتح بفتح اليمامة أو خيبر، وفي ذلك يقول: "... كاد أن يكون كفتح اليمامة أو خيبر، ويجب عليه مع ذلك إذاعة الثناء الجميل، على من أظهر الله على يده هذا الخبر الجزيل، من جنود المسلمين العثمانية وفر الله عددهم وقوى مددهم وعددهم..."[62].

غير أن هذا الفتح لم يدم بسبب الاحتلال الإسباني، الذي استرجع مدينة وهران سنة 1144هـ/1732م؛ فلم تبق تحت حكم الباي مصطفى بوشلاغم سوى 24 سنة حيث ذكر أبو راس: "من بعد عشر وعشر ثم أربعة... عادوا إليها قرة أعين التعس"، كما أكد أن أمر استعادتها لم يكن بالأمر الصعب، بسبب ضعف مقاومة الباي بوشلاغم؛ فقد تمثل دخول الإسبان إليها للمرة الثانية بزحفهم عليها في مراكب كثيرة، مع عدة وعتاد، ورسوا بمرسى الحريشة غربي وهران، لكنهم وجدوا في مواجهتهم مصطفى بن يوسف رفقة 4000 جندي، ودارت معركة بين الجيشين كانت فيها الغلبة للإسبان[63].

يذكر أبو راس الظروف التي استرجع فيها الإسبان وهران، حيث يقول: «لقد أخبرني شيخنا... سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي شرف الله في الجنان مكانه، وكان حاضرا

لتلك الواقعة، أن الكفرة لما تكامل عسكرهم في البر، وبقي جل مددهم في البحر، لم يعملوا صفا للقتال، ولم يطلبوا مجالدة الرجال، وإنما زحفوا للبلد الرجالة والفرسان... بارودهم كرعد متصل، ورصاصهم كمطر منهطل، لا يستطيع أحد قربهم ولا يكر شجاع نحوهم، وأن الباي مصطفى بوشلاغم (باي وهران) وفاتحها مع بكداش باشا سنة 1119هـ سقط في ذلك اليوم عن فرسه، لشدة تحرضه على الجهاد وكثر عدوه... »[64].

دام احتلال الإسبان لمدينة وهران ما يقارب ثلاثة قرون، إذ احتلوها سنة 914هـ/1509م، وطردوا منها سنة 1119هـ/1708م، ثم استرجعوها سنة 1144هـ/1732م، وبقوا بها ربع قرن إلى أن انتهى احتلالهم لها نهائيا سنة 1206هـ/1792م على يد الباي محمد بن عثمان الكبير[65]، بعد حشده لقوات عسكرية كبيرة، مُكرهًا إياهم على الجلاء منها بصفة نهائية[66].

إن نهاية الداي محمد بكداش كما أشار إليها صاحب التحفة كانت بمقتله نتيجة ثورة الإنكشارية عليه، حيث اغتالته سنة 1710م، بسبب عدم دفع أجورهم نتيجة تأخر تحصيل الضرائب إلى خزانة الدولة، ونصبت دالي إبراهيم بدلا منه، وألبسته قفطان الداي السابق الملطخ بالدماء، كما قام الداي الجديد بقتل الصهر أوزن حسن[67].

4- دراسة تحليلية نقدية لكتاب "التحفة المرضية": ما يلاحظ عند قراءة مقامات ابن ميمون أنه حاول إظهار شخصية محمد بكداش على أنها كاملة لا نقيصة فيها؛ فعلى امتداد المقامات جميعها لا نجد أي سلبية نسبت له أو قيلت فيه؛ فحتى ما قاله فيه حساده ذكره الكاتب في قوله: «فلما أبصره خاصة الأمير، وصاروا ينسبون إليه الفحشاء ونبذوه...؛ فدعوا الأمير إلى رفضه، وسعوا إلى حل مبرم عهده ونقضه»، مما يدل على أن ابن ميمون أراد أن ينكر عليه هذه التهم، وأنها ليست صحيحة، وإنما من باب الحسد نسبت لبكداش، وفي مقابل ذلك فإننا نجده قد أطنب في تعداد مساوئ مصطفى أهجي، وهذا دليل على انحياز الكاتب لهذه الشخصية التي من أجلها كتب هذه المقامات، كما أنه أراد من خلالها أن يقنع القارئ بوجهة نظره حول شخصية محمد بكداش، ومن أجل ذلك اعتمد على الاستشهاد بالقرآن، والشعر والحديث النبوي، وغير خفي على الدارسين والمهتمين أن "الشاهد مهما كان نوعه يقدم الحجة وإمكانية الإقناع والتأثير، والوصول إلى عقل القارئ- أو قلبه على السواء- بسهولة ويسر"، ومن نماذج الاستشهادات القرآنية التي وظفها بغرض التأثير على المتلقي ما جاء في المقامة السادسة: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[68]، وهو بذلك يريد أن يبرز بأنه

كان منصورا بأمر من الله تعالى الذي بيده النصر، حتى لا يتجرأ أحد على التشكيك فيه[69]، وهو بهذا يظهر عليه بأنه شاعر بلاط غير رسمي كما ذهب إلى ذلك أبو القاسم سعدالله[70].

1-4 دوافع التأليف: إن عنوان الكتاب يوحي بمضمونه؛ فهو التحفة، وهو طلب الرضى من محمد بكداش؛ فكأن الكاتب يقدم هدية غالية يبتغي من ورائها الرضى والقبول منه[71]؛ فكان دافع ابن ميمون على تأليفه هو تقربه ومحبته لهذا الداي ولسيرته المرضية، وفي ذلك يقول: «وبعد فإنني لما رأيت مولانا الإمام الذي أنام في ظل الأمان، جميع الأمان، عالم الأمراء وأمير العلماء، مولانا فخر الدولة العثمانية، وناشر العدل على جميع البرية، أبو النصر محمد بكداش أنارت أنواره جميع البلدان، والتف ملكه بالإحسان التفاف الساق بالساق، أردت أن أخدم مجلسه العالي بزف هذا الكتاب إليه، المحتوي على ما نشر من السيرة المحمدية عليه، وأشرف محاسنه بمثوله بين يديه...، وسميته التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، محتويا على مقامات ست عشرة... كأنها قلائد العقيان ودرره، والله أسال أن يتلقاه بالقبول»[72].

وعليه يتضح من خلال ذكره لهدف التأليف، أن الداعي لذلك هو التقرب من السلطة العثمانية، المتمثلة في شخصية الحاكم العثماني محمد بكداش.

2-4 منهج التأليف: انتهج ابن ميمون منهج الأديب من حيث السجع، ومنهج المؤرخ من حيث التعبير عن الواقع، ولم يستعمل الخيال خاصة فن المقامات، الذي يعد عنصرا أساسيا من عناصر الأدب، وبالتالي تسمية الكتاب بـ المقامات يعد مبالغة ومجازا[73].

3-4 أسلوبه: تميز بقوة التعبير مع اعتماده على السجع، إضافة إلى طرح أفكاره بشكل مرتب مع تسلسل الأحداث، حيث أنه يقتبس أحيانا من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ويطعمه بأبيات شعرية[74]، وبالرغم من أن عنصر الحكاية والخيال ضروري للمقامة الفنية؛ فهو يكاد يكون منعدما عنده، ولكنه كان مجبرا وهو يسجل أحداثا تاريخية، أن يكتب التاريخ لا الأدب، وأن يسجل الوقائع لا الخيالات[75].

4-4 موضوعه: تناول ابن ميمون في هذا الكتاب سيرة الداي محمد بكداش، كما تحدث عن الفتح الأول لمدينة وهران على يد هذا الداي وصهره أوزن حسن، غير أنه أغفل ذكر مصطفى أبي الشلاغم باي إيالة وهران رغم دوره في نجاح هذا الفتح[76].

وقد استغرب أبو القاسم سعدالله تسمية ابن ميمون كتابه بـ"التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"، ولم يسمه مثلا المقامات المرضية أو نحو ذلك، حتى تتسق مع المحتوى حيث جمع ابن ميمون ذلك في ست عشرة مقامة[77].

5-4 المصادر المعتمدة: اعتمد ابن ميمون على العديد من المصادر في تسجيله للأحداث التاريخية في كتابه "التحفة المرضية"، أهمها المشاهدة والمعاينة المباشرة، ذلك أنه كان شاهد عيان لأحداث الفتح الأول لمدينة وهران عام 1708م.

كما أنه استشهد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية في العديد من مقاماته، منها قوله تعالى: "**وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها**"[78]، وتعد النظم الشعرية والقصائد من المصادر الهامة التي اعتمد عليها ابن ميمون بشكل كبير في عرض الأحداث التاريخية؛ فالمقامة الثامنة على سبيل المثال لا الحصر ضمت ثلاثمائة واثنين وسبعين بيتا من الشعر، نقل فيها ابن ميمون تهنئة العلماء والأدباء للداي بكداش، أما المقامة التاسعة فضمت اثنين وسبعين بيتا، في حين احتوت المقامة الثالثة عشر على أربعين بيتا من الشعر، إضافة الى اعتماده على أرجوزة أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد الحلفاوي، حيث يقول[79]:

لما أراد الله بالدين جلا عن أرض وهران بني الكفر جلا[80]

6-4 قيمته التاريخية: يعتبر كتاب التحفة المرضية وثيقة تاريخية هامة، كشفت لنا عن العديد من الأحداث التي تخص الفتح الأول لمدينة وهران[81].

7-4 قيمته الأدبية: كتاب التحفة المرضية يعد مصدرا أدبيا من مصادر الأدب الجزائري في العهد العثماني، حيث احتوى على ست عشرة مقامة أدبية، وسبعمائة وخمسة وتسعين بيتا من الشعر، كلها لأدباء جزائريين عاصروا المؤلف، وشاهدوا أحداث فتح وهران؛ فهو يجمع في كتابه بين الأدب والتاريخ[82]، ولأن الشعر له مكانة وتأثير فقد استشهد به لدرجة أننا لا نجد مقامة تخلو منه؛ فقد وظف ما قيل من مدائح شعرية، واستعان بما كتب من تقاريض نثرية في محمد بكداش، من أجل أن يضع بين يدي القارئ شواهد مختارة متطابقة مع رؤيته تعينه على إقناعه بوجهة نظره[83].

الخاتمة: صفوة القول أن كتاب "التحفة المرضية "لابن ميمون يعد وثيقة تاريخية ومصدرا أدبيا هاما، ساهم في التأريخ لأحداث الفتح الأول لمدينة وهران عام 1708م، هذا الحدث الذي لاقى اهتمام جل الكتاب، وهو بذلك رد على الادعاءات القائلة بأن الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني تكاد تكون منعدمة؛ فكتاب التحفة المرضية ضم العديد من الأشعار

والقصائد بأسلوب أدبي متميز خدمة وإرضاء للسلطة العثمانية، المتمثلة في شخصية الحاكم العثماني محمد بكداش، فقد مثل كتابا سابقا لزمانه.

الهوامش:

1-محمد ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص11.----2-ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي "تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين"، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 398.

3 -عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص216.----4 -ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 398.----5 - المرجع نفسه، صص398-399.

6- الجيلالي سلطاني، فتح وهران من خلال كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، مجلة الحضارة الإسلامية، ع12، مج 9، د.ت، وهران، ص ص 66-67.----7 - محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص83.

8- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج 2، ص208.

9 - محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص ص 86-87.----10- ناصر الدين سيعدوني، المرجع السابق، ص399.

11 - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، دار المعرفة، الجزائر، 2013، ص180.

12 - ناصر الدين سيعدوني، المرجع السابق، ص400.----13 - المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص180.

14- الجيلالي سلطاني، المرجع السابق، ص 67.----15 - محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص ص 86-88.

16- المصدر نفسه، ص ص 88-89.----17- المصدر نفسه، ص ص 88-91.----18 - المصدر نفسه، ص ص 143-144.

19 - المصدر نفسه، ص 116.---20- المصدر نفسه، ص ص 119-120.---21 - المصدر نفسه، ص 12.---22 - المصدر نفسه، ص 139.

23 - المصدر نفسه، ص 135.---24 - المصدر نفسه، ص 203.----25- محمد أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق: محمد غانم، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا، د. م. ن، د.ت، ج2، ص 22.

26- المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الوعي، الجزائر،2017، ص24.

27-أبو زيد عبد الرحمان الجامعي الفاسي، مدينة وهران الرباط والتحرير من خلال شرح أرجوزة الحلفاوي التلمساني، تحقيق: العربي بوعمامة، حمدادو بن عمر، ط1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015م، ص 42.

28-المشرفي عبد القادر، المصدر السابق، ص ص 32-33.----29-محمد أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار تحقيق: محمد غانم، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا، د. م. ن، د.ت، ج1، ص45.---30-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1998، ج1 ص 203.----31-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 30.

32 - Henri Léon Fey, Histoire D'oran Avant Pendant et après la domination Espagnole, typographie Adolphe éditeur, Oran, 1858, pp 127-128.

33 –Aramburu, Oran et l'Ouest Algerien au 18éme siècle d'après le rapport Aramburu, TR : Mohamed El Korso, Mikel de Epalza, Bibliothèque Nationale, Alger, 1978, p23.

34-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 30. ----35-محمد أبي راس الناصر، المصدر السابق، ج1، ص47.
36- Henri Léon Fey, op.cit, p 35.
37-محمد أبي راس الناصر، المصدر السابق، ج1، ص47.---38-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 30.----39-المصدر نفسه، ص 30.
40-Henri Léon Fey, op.cit, p 35.
41-صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر،2012، ص236.----42-أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، دار البعث، الجزائر، د.ت، ص465.----43-رقية شارف، الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18وبداية القرن 19م دراسة تحليلية نقدية، ط1، دار الملكية، الجزائر، 2007، ص ص 193،197.
44- Aramburo, op.cit, pp24-25.
45-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 29.----46-المصدر نفسه، ص 144.----47-عبد المجيد دقياني، دليلة الباح، سيميائية المركز والهامش في مقامة التحفة المرضية، مجلة العلوم الإنسانية، ع35-34، مارس 2014، الجزائر، ص 458.-----48-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 13.
49-الطاهر حسيني، تجليات سلطة الكاتب من خلال النص المقامي في التحفة المرضية لابن ميمون، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع 3، مج 3، د.ت، الجزائر، ص 45.----50-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 13.----51-أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص 462-463.
-52 - Devoulx A, Tachrifat recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne d'Alger, conservateur d'archives arabes des domaines, imprimerie du gouvernement ,Alger, 1852,p p 13-14.
53-محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، ط1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 210.
54-محمد شاطو، نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، رسالة ماجستير، عمار بن خروف، تاريخ حديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006، ص ص 53،55.
55-محمد بن محمد بن عبد الرحمان الجيلاني ابن رقية التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق: خير الدين سعيدي، ط1، أوراق ثقافية، الجزائر، 2017، ص 31.
56-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، صص87، 118.----57-المصدر نفسه، ص ص 152،176.
58-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 413.----59-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص190.
60-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص ص 233-234.----61-المصدر نفسه، ص ص 235-237.
62-أبي زيد عبد الرحمان الجامعي الفاسي، المصدر السابق، ص33.-----63-محمد أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، ص 47.----64-أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون الرشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص37.----65-المصدر نفسه، ص 13.
66-يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 63.
67-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 31.----68-سورة آل عمران، الآية 160.
69-الطاهر حسيني، المرجع السابق، ص ص 55-56.----70-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2007، ج1، ص 216.----71-الجيلالي سلطاني، المرجع السابق، ص 68.
72-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص،84،113.----73-المصدر نفسه، ص84.----74-المصدر نفسه، ص 85.

75-أحمد راجع، أحمد جعفري، الحقل الدلالي في مقامات محمد بن ميمون الجزائري (ت18م)، مجلة رفوف، ع8، ديسمبر2015، الجزائر، ص 124.----76-محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 84.

77-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 208.----78-سورة الزخرف، الآية 48،

79-ابن ميمون، المصدر السابق، ص ص 89-90، 228، 249.

80-أبو زيد عبد الرحمان الجامعي الفاسي، المصدر السابق، ص 38.

81--محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص 86.

82-ابن ميمون، المصدر السابق، ص 85.

83-الطاهر حسيني، المرجع السابق، ص 56.